

القفم وصناعة الإنسان المستقبلف

2015-02-02 شبكة النفا

ففعش الانسان فف واقع ملموس؁ ففوزع بفن المكان والانسان؁ أو ما ففسمى بالمحفط الاجفمافف والارض؁ فقد جبلف البشرفة على الاجفماف؁ وعرفف الثباف فف ارض مءءءة؁ منذ أن عااءرف عصور الفكوفن الاولى؁ فالمحففط (الارض والناس)؁ هما واقع الانسان؁ وهذا الواقع ففنفوف على مصالح وعلاقات وسلطاف مءفلفة؁ وفضارب فف المنافع والاراءاف؁ الامر الذي ففطلب سفطرة على الحراك البشرف عموما؁ لاسفما بفن الحاكم والمحكوم؁ ففس فف الجانب السفاسف فقط وانما فف جمففع المءالات الفف فنفوف على نوع من السلطة؁ كما ففمفل ذلك برففس الاءائرة الخءمفة؁ أو المؤسسة او المصنع او المءرسة وهكذا؁ فجمففع هذه المرافق الخءمفة والفكرفة ففدها هرم اءارف ففءاً من أصغر عامل صعواا الى قمة الهرم مءمفلا بالرففس او المءفر.

هذه الشبكة من العلاقات المعقءة بفن الانسان ومحفطه الاجفمافف والعملف؁ ففءءعف رابفا مشفركا للففنظفم والسفطرة؁ والفوففه نحو الافضل اءافا؁ وهذا الرابف هو القفم فءفءفا؁ ففهف الفف فقوم بءور فءسفن الواقع.

فقول الامام الرافل آفة الله العظمف؁ السفء محمد الحسففن الشفرافف (رءمه الله)؁ هناك علاقة فكاملفة بفن منظومة القفم وبفن الواقع؁ بمعنف أءءهما فكمّل الاخر؁ فالقفم فءفاج الى واقع (ففكون من الانسان والمكان والعلاقات)؁ فف ففكون القفم فعالة ومؤثرة؁ فذ أنها لا فمكن ان فعطفف أكفها فف الفراغ!؁ أما الواقع فهو فءفاج الى منظومة القفم؁ لأنه من ءونها سفكون واقعا مءخلفا او صفرا على الشمال؁ لأن القفم هف الفف صنع الانسان المستقبلف.

كما ففءء ذلك الامام الشفرافف؁ بقولة فف ففابه (فقه المسفقبل): إن (القفم فءعل الإنسان مسفقبلاف؁ لأنها فصفف البعء المسفقبلف على الواقع).

كما أن الامام فصف العلاقة الفكاملفة بفن الواقع والقفم بالفعبفر الفالف: إن (القفم وءءها لا فؤءف

ثمارها، لابدّ من ملاحظة الواقع أيضاً، إذ لا يمكن تحقق القيم من دون الواقع، ولا يمكن تحقق الواقع السليم من دون قيم). من هنا يتضح أن الطرفان (الواقع والقيم) كلاهما يحتاجان بعضهما، نظراً لدور كل منهما في تربية الآخر.

استكشاف الواقع بدقة

لا يمكن لمنظومة القيم أن تعمل بطريقة سليمة ومضمونة النتائج، ما لم يتم استقرار الواقع واستكشافه بصورة دقيقة، بمعنى لابد من فهم احتياجات الواقع ثقافياً وفكرياً، فإذا كان الواقع ذا دلالات ومؤشرات مادية يمكن لمسها أو رؤيتها بحاسة النظر، فإن الجانب المعنوي والفكري من الواقع يتمثل بالقيم، ولا يمكن أن يكون الواقع سليماً إذا اقتصر تطوره على الجانب المادي فقط، لأن القيم هي التي تسمو بالواقع من خلال دفعها للانسان كي يرتقي، بمعنى أن القيم تصنع واقعا راقياً، من خلال صناعة الانسان الذي ينحو الى الارتقاء.

كما أن القيم تخلص الانسان من نظره الذاتية المستحكمة، والواقعة تحت سيطرة الانانية، لذلك تعمل القيم بقوة وانتظام على تشذيب أنانية الانسان، وتجعله اكثر عقلانية، واكثر ميلاً لنكران الذات والنظر الى مصالح الآخرين وحقوقهم بمنظار المساواة مع حقوقه ومنافعه.

لذا يؤكد الامام الشيرازي في كتابه المذكور نفسه على أن: (القيم هي التي تسمو بالإنسان فوق الواقع، وتجعله متطلعاً، واعياً، مدركاً لمهام مستقبله، فالقيم تخرج الإنسان من أفقه الشخصي المحدود، بل تخرجه من نصفية نظره المحلية والموضعية وشبهها إلى إطلاقية نظره الإنسانية، لتشمل العالم الذي يعيش فيه).

ولا ينحصر هذا التأثير للقيم في جانب دون غيره أو مجال دون غيره، فالعمل السياسي ينبغي أن تحكمه منظومة قيم، تجعل منه مشذباً من الاخطاء، لاسيما انه يتعلق بالسلطة والتسلط من جهة، وبمصالح الناس من جهة اخرى، لذلك يركّز دعاة الاصلاح الى وجوب ربط العمل السياسي بالقيم، حتى تتواءم مع مصلحة الانسان.

حول هذا الجانب يقول الامام الشيرازي في كتابه نفسه: إن (السياسة واقع، ولكنها عندما تمتزج بالأخلاق تصبح أفقاً واسعاً لا ينحصر في المصالح الضيقة، والأنايات ولا بردود الأفعال الآنية، كما هي اليوم بعض السياسات الدولية التي تتعلق بالواقع فقط دون الأخذ بالقيم). وهذا بالضبط ما يفتقر إليه عالمنا، لاسيما في الواقع من جانبه السياسي، حيث تسود الانانية وتفضيل الذات وتضارب المصالح والارادات، بسبب غياب دور القيم وعدم إلتزام القادة السياسيين وصناع القرار في العالم بالدور الحاسم للقيم في صناعة انسان مستقبلي لا يؤمن بالصراع طريقا للبناء، بل يعمل بشكل حثيث لبناء مستقبل انساني افضل، في اطار منظومة قيم قادرة على نزع الارث المتراكم من الاستحواذ في ذات الانسان، وتجعله اكثر استعدادا للتعاون مع الجميع من اجل صناعة غد مشرق لعالمنا الذي يعاني من مستقبل مجهول، خاصة ان الانسان لم يبذل ما يكفي من الجهد في مجال بناء القيم وتفعيلها، بل كان ولا يزال اكثر اهتماما بالتطور المادي.

كما يؤكد ذلك الامام الشيرازي قائلاً: (الملاحظ أنّ بعض الشعوب تقدمت كثيراً في صنع الواقع، لكنها لم تتقدم في مجال القيم. فعلى سبيل المثال: إنّ التقدم العلمي والصناعي في الدول الغربية لم يواكبه تقدم في نطاق القيم). وهذا يؤدي الى واقع خطير كونه يبقى فارغاً من القيم وعاجزاً عن صنع الانسان المستقبلي.

التكامل ينهي الصراعات

عندما يلتقي الواقع بمنظومة القيم بالطريقة المدروسة الجوهرية وليس الشكلية، فإن النتائج سوف تكون كبيرة، وتصب في صالح الجميع، لذلك تذهب جميع المشاكل الى الحل والتضاؤل، بسبب انتفاء الحاجة للصراع، فالكل يحصل على ما يريد، ويبقى الهدف بناء المستقبل بصورة مثلى، وهذه نتائج حتمية للتكامل بين القيم والواقع.

كما نقرأ ذلك في قول الامام الشيرازي بوضوح: (عندما يتحقق التكامل بين الواقع والقيم تذوب الصراعات، وينتهي التنافس غير المشروع، وتعم العدالة، ويسود السلام، ويعلو صوت الحق، ويعيش الناس في طمأنينة وأمن، ويزدهر المستقبل يوماً بعد يوم). وسوف تحقق الامم القادرة على صنع هذه التكاملية بين الطرفين (الواقع والقيم) أهدافها المتمثلة بصنع مستقبل سعيد مشرق، وانسان

ذي عقلية مستقبلية وإن كان يعيش في واقعه الراهن.

لذا يقول الامام الشيرازي حول هذا الموضوع: (هذه هي أهداف كل أمة صالحة تطمح إلى بناء المستقبل السعيد المشرق، فإذا انتهت البشرية إلى هذا الفهم، وإلى هذه النظرة الشمولية، وتمكنت من وضع المقاييس اللازمة لعدم الانفلات من هذا الفهم، يكون ذلك اليوم يوم سعادة وهناء لكل البشرية). بهذه الصورة وهذه المقاييس المرتبطة بمنظومة القيم، سوف يوضع حد لموجات الانفلات التي تعم العالم من حين إلى آخر، وسوف تتم صناعة الانسان المستقبلي، القادر بدوره، على صناعة مستقبل تضمنه العلاقة التكاملية القائمة بين منظومة القيم والواقع، وعند ذلك يعيش العالم اجمع واقعا متوازنا، لاسيما اذا كان أهل العقل والحكمة هم من يبادر لتحقيق هذا الهدف من خلال توفير الظروف والمقومات اللازمة لتحقيقه.

لذا يقول الامام الشيرازي حول هذا الهدف تحديدا: (نطمح أن نرى المستقبل من خلال - التكامل بين القيم والواقع- فهي أمور يستحسنها العقل، وعلى عقلاء العالم السعي من أجلها، بعد توفير الوسائل للوصول إليها).